محاكمة القيم: دراسة لقصة الجريمة لزكريا تامر

د. عبد النبي اصطيف

النص:

«الجريمة»[١]

كان سليمان الحلبي يمشي بخطا متئدة، مبتهجاً بالهواء الذي يهب فيما حوله، مسقطاً الأوراق الصفراء من الأشجار المنتصبة على جانبي الشارع. وكانت يداه قابعتين في جيبي بنطاله كطفلين نائمين. وحين توقف لحظة عن السير ريثما

(*) عبد النبي اصطيف: باحث من سورية، استاذ الأدب المقارن والنقد الحديث بجامعة دمشق.

(١) زكريا تامر، ربيع في الرماد، ط٢ (منشورات مكتبة النوري، دمشق، ١٩٧٨)، ص ص (٢٧-٣٩).

يشعل سيجارة، دنا منه رجلان، وجهاهما متجهمان، وطلبا منه هويته بلهجة صارمة. وارتبك إذ عرف مهنتهما. وقد كانا طويلي القامة، قسمات وجهيهما متشابهة. وأعاد الرجلان إلى سليمان أوراق هويته ثم طلبا منه مرافقتهما، فأطاعهما دون تفكير، وسار وهو يقول لنفسه: «لابد من أن ثمة سوء تفاهم».

واقتاده الرجلان إلى مخفر غير بعيد. وأدخلاه إلى غرفة لها ثلاث نوافذ مفتوحة للشمس والهواء والسماء. وكان يجلس في صدر الغرفة رجل ذو شوارب سوداء، أمامه مكتب حديدي، تكومت على سطحه أكداس من الورق الأبيض.

وقال سليمان لنفسه: هذا رجل أسود.

وقال الرجل الأسود متسائلاً: «هل أنت سليمان الحلبي؟».

فأحنى سليمان رأسه بالإيجاب دون أن يتفوه بكلمة، وتناول الرجل الأسود ورقة بيضاء موضوعة على المكتب، وطفق يقرأ برتابة وكسل: «في ليلة السادس من حزيران شاهد سليمان الحلبي حلماً قتل فيه الجنرال كليبر..».

وتوقف الرجل الأسود عن القراءة، وتطلع إلى سليمان الحلبي بعينين صارمتين بينما تحول الرجلان إلى تمثالين من حجر، متسمرين قرب إحدى النوافذ، وكانت المدينة خلف النافذة. وتساءل الرجل الأسود مخاطباً سليمان: «هل هذا صحيح؟».

فغمغم سليمان الحلبي مستنكراً: «لا لا. أنا لا أعرف الجنرال كليبر».

فالتفت الرجل الأسود نحو الرجلين، وقال لهما: «أحضرا الشهود».

ولم يتحركا غير أن باب الغرفة فُتحَ بعد لحظات، ودلف إلى الداخل ثلاثة أشخاص، ثيابهم معفرة بالتراب، ووجوههم صفراء كأن أصحابها عاشوا مئات السنين في قبور تمقت الشمس. وعرفهم سليمان على الفور وكانوا رجلاً هرماً وامرأة كهلة وفتاة في مقتبل العمر.

وقال الرجل الأسود: «ليتقدم الشاهد الأول».

وابتعد الهرم منفصلاً عن المرأة الكهلة والفتاة، واقترب من مكتب الرجل الأسود، ووقف أمامه محني الظهر، وقال بصوت كأنه منبعث من أسطوانة عتيقة تدور بتثاقل تحت ذراع الحاكي: «في ليلة السادس من حزيران شاهدت سليمان الحلبي يقتل الجنرال كليبر..».

فقاطعه سليمان هاتفاً: «أبي».

فلم يأبه الهرم له، وتابع كلامه قائلاً: «أبصرته يطلق من مسدس ضخم سبع رصاصات اخترقت جسد الجنرال وانبثق الدم من سبعة ثقوب».

وكان الحزن في تلك اللحظة فارساً يمتطي صهوة جواد غير مروّض، وقد وطأت سنابكه لحم سليمان بينما غرس الفارس سيفه في القلب تماماً، ولكن سليمان لم يمت إنما سمع الرجل الأسود يقول: «الشاهد الثاني..».

وتقدمت المرأة الكهلة، ووقفت بجانب الرجل الهرم وقالت: «رأيته يقتل الجنرال وكان يحمل فأساً، وقد رفعها إلى أعلى، وأهوى بها بكل قوته فشطر الرأس إلى قطعتين، وسقطت الجثة قربي، واستطعت رؤية النخاع ممزقاً خارج الجمجمة المهشمة».

وأشارت نحو سليمان الحلبي بإصبع لا ترتجف، وقالت: «هذا هو القاتل».

فتمتم سليمان الحلبي بحسرة: «أمي أمي».

فرمقته الكهلة بقسوة، وقالت له: «أمك امرأة واحدة فقط».

وتذكر سليمان يوم كان صغير السن، يلعب في الزقاق ملطخاً ثيابه بالطين، فوقفت أمه على عتبة باب البيت، وكشفت عن صدرها الشديد البياض، وقالت له منادية بحنو: «تعال تعال».

وقال الرجل الأسود: «الشاهد الثالث..».

وتطلع سليمان الحلبي إلى الفتاة بنظرات أسيانة. ولم تتحرك الفتاة، فدمدم الرجل الأسود بغضب: «الشاهد الثالث.. ليتقدم».

وظلت الفتاة متجمدة في مكانها غير أنها بدأت الكلام قائلة: «رأيته

راكباً سيارة، دعست الجنرال، ومرت فوقه عدة مرات حتى تحول إلى لحم لا شكل له». وصاح سليمان الحلبي: «ماذا حدث ياأختي؟ ألم أتركك في البيت وقد طلبت إلي أن أشتري لك مشطاً؟».

وأخرج يده من جيبه حاملة مشطاً أسود اللون. وقال الرجل الأسود: «لينصرف الشهود».

وأشار بيده بحركة ضجرة إلى الشهود الثلاثة، فتجمعوا في الحال متلاصقين في كتلة واحدة، واتجهوا نحو الباب، وما لبثوا أن غادروا الغرفة.

وضع الرجل الأسود سيجارة بين شفتيه، وحين رفع يده نحو السيجارة حاملة عود الثقاب المشتعل، لاحظ سليمان أن يد الرجل الأسود غريبة، فجلدها كثير التجاعيد، فكأنه جلد سرطان ميت، ظل زمناً مديداً تحت شمس قاسية.

ونفث الرجل الأسود دخان سيجارته، وتابعه بنظراته بينما كان يتلوى صاعداً في جو الغرفة ثم يتلاشى بتكاسل، وقال لسليمان: «هل سمعت ما قيل؟ الأدلة على جريمتك ثابتة».

«- لم أعترف بشيء».

«- اعترافك ليس مهماً. لقد اعترف غيرك بذنبك».

«- أنا بريء».

فتجهم وجه الرجل الأسود، وقال بصوت بارد وقاس: «لماذا ولدت مادمت بريئاً؟ جئت إلى هذا العالم كي تهلك. وستهلك دون احتجاج. أنت مجرم، وكنا نراقبك منذ أمد طويل فالناس المشبوهون نعرفهم بسرعة ولا يستطيعون خداعنا».

وتناول الرجل الأسود أوراقاً بيضاء من على سطح المكتب، وأخذ يقرأ ما كتب فيها: «في الثالث من نيسان في الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق تطلع سليمان الحلبي إلى القمر، وقال لنفسه: القمر سعيد لأنه لا يعيش في مدينة حاكمها الجنرال كليبر».

وتألق القمر في مخيلة سليمان الحلبي، وكان قمراً تهرول نحوه سحب قرمزية.

«- في يوم الحادي عشر من مايس في الساعة الثامنة صباحاً فتح سليمان الحلبي أبواب أقفاصه وأطلق سراح عصافيره».

وتذكر سليمان رغبة في البكاء اجتاحته بينما كانت العصافير في بدء انطلاقها عبر الفضاء الأزرق ترفرف بأجنحتها بارتباك واضطراب.

«- وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الثاني من حزيران خطر في ذهن سليمان الحلبي أن العالم سيكون سعيداً لو هلك بعض الأشخاص».

ورمى الرجل الأسود الأوراق على المكتب بحركة ساخطة، وقال: «ألم أقل لك إن أمثالك لا يستطيعون خداعنا؟».

وظل سليمان صامتاً وقد استغرب أن ينمو في أعماقه شعور حقيقي بالذنب، ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الاقتناع ببراءته.

وابتسم الرجل الأسود، ولعق بلسانه شفته السفلى وقال: «ستعدم في الساعة السادسة».

فألقى سليمان نظرة سريعة على ساعته، فألفاها توشك أن تصبح السادسة، فانتابه الهلع، ورفض تصديق ما حدث حوله، واعتبره مجرد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزة من يد أمه وسيسمع صوتها. وقال الرجل الأسود بتشف: «ستعدم».

«- ألن أحاكم؟».

فضحك الرجل الأسود، وقال: «انتهت المحاكمة. أنا القاضي».

وتناهى إليس مع سليمان صفير قطار، لابد من أن القطار يهدر الآن ماراً تحت الجسر، قاذفاً دخانه في سحابة صغيرة لن تعيش طويلاً وستضمحل إثر ابتعاد القطار.

«- هل سأموت شنقاً؟».

«- لا».

«- هل سيطلق النار علي؟» .

«- لا» .

«- هل سأحرق؟» .

«- لا» .

«- هل سأدفن حياً في التراب؟» .

«- لا» .

وأشار إلى الرجلين قائلاً : «هيا . . نفذا الحكم بالإعدام» .

الساعة الآن هي السادسة تماماً . والمدينة مستسلمة بفتور لضياء الشمس الآفلة ، وكانت كامرأة ترغب في النوم قليلاً بعد أن أنهكها العمل من أجل أولادها . وعري سليمان الحلبي من ملابسه كلها ، ولم يخجل من وقوفه عارياً عرياً كاملاً أمام أعين الرجال الثلاثة وكانت السيارات تعبر الشوارع وهي تزعق بأبواقها عند المنعطفات . وأخرج الرجلان من خزانة خشبية مدية كبيرة ، ثم ألقيا سليمان على الأرض ، ولم يحاول المقاومة .

وكان بجانب الرجل الأسود ، منضدة قصيرة القوائم ، ملتصقة بالجدار ، يقبع فوقها مذياع صغير ، مد إليه الرجل الأسود يده . وبعد قليل انسابت منه أغنية لامرأة ، صوتها مفعم بالعذوبة والشجن ، ويتلاقى فيه الريح والمطر والحنان العارم .

وأنصت الرجلان قليلاً إلى الأغنية ثم تحولا إلى جلادين وبترا أصابع اليد اليمنى بالمدية ، فصرخ سليمان متألماً ، وتدفق الدم . خمس أصابع كانت ملكاً لسليمان الحلبي ، وقد صافحت الأصدقاء ولمست باشتهاء لحم النساء وكانت باستطاعتها في لحظة غضب خنق مخلوق ما .

وقال الرجل الجلاد لزميله : «يالها من أغنية! ماذا تغديت؟» .

فأجاب الرجل الآخر : «حساء وقليلاً من الخبز . أسناني تؤلمني» .

«- مسكين» .

وأشعل الرجل الأسود سيجارة أخرى ، وتركها معلقة بين شفتيه لتحترق على مهل .

وقطع ساعد سليمان، فتأوه وأطلق صرخة حيوان، صرخة طويلة مبحوحة. ولقد كان سليمان يحلم بأن تنام الفتاة التي سيحبها على ساعده لا على وسادة محشوة بالصوف أو القطن.

وقال أحد الرجلين بينما كانت أصابعه تلتف حول مقبض المدية وكأنها تتوق إلى أن تصير قطعة منها:

«- ليلة الأمس شاهدت فيلماً وكان سخيفاً».

«- كل الأفلام سخيفة في هذا الاسبوع».

وكانت أغنية المذياع تصعد وتبوح بالعذاب المر الذي يبقى إثر اندثار الحب.

واضمحل مرفق سليمان. وكان مرفقاً يتكئ على حواجز الأنهر ومناضد المقاهي، ويلكز الأصدقاء. وجثا أحد الرجلين على ركبتيه، وبتر الذراع اليمنى كلها بحركة سريعة بينما كان الرجل الثاني يمسك بسليمان لمنعه من الحركة، ولم يحاول سليمان الحلبي المقاومة إنما كان ينتفض كلما مست المدية لحمه، ويتلوى على الأرض الناعمة الملساء بينما الدم يتابع تساقطه ذا الإيقاع الكئيب.

وفتحت دور السينما أبوابها، وغادرها روادها بخطا متثاقلة. وبترت ذراع سليمان اليسرى. ولو كان سليمان الآن متسولاً يمشي في الشوارع لاستدر الشفقة ولانهمرت النقود عليه فهو بلا ذراعين، ولن يستطيع معانقة امرأة، وإذا جاع فمن سيضع اللقمة في فمه؟

وكان الرجل الأسود يبتسم منتشياً بالأغنية المنبعثة من المذياع. وتابع الرجلان عملهما، وابتدأ جسد سليمان الحلبي ينقرض متضائلاً رويداً رويداً، وكانت الأعضاء المقطوعة تلقى جانباً. وكان الناس في الشوارع يسيرون على الأرصفة، وبعضهم يقف قليلاً أمام واجهات المكتبات متطلعاً إلى عناوين الكتب والجرائد. وكانت أصوات بائعي أوراق اليانصيب تتصاعد مطاردة المارة بإلحاح: «ستربح مئة ألف ليرة». وكانت الباصات تواظب على المسير متوقفة بين الحين والحين في أمكنة معينة.

وقال الرجل الأسود مخاطباً الرجلين: «النته بسرعة. لدي موعد».

وتخيل الرجل الأسود بيته. لابد من أن ضيوفه ينتظرون. ولابد من أن زوجته ترحب بهم، وتقدم لهم فناجين القهوة. وكانت زوجته جميلة، ويشعر الآن بأنه يحبها بضراوة.

وكان الرجلان في تلك اللحظة متغضني الجبين، ويداهما ملوثتين بالدم.

وقال الرجل الممسك بالمدية لزميله: «إلى أين تنوي الذهاب بعد العمل؟».

«- إلى المقهى».

«- أنا سأذهب إلى البيت، سأقرأ قليلاً من الشعر ثم أنام».

ووضع حد المدية على عنق سليمان الحلبي، وأغمض سليمان عينيه بينما كان يحس بنصل المدية يلامس حنجرته موشكاً على ذبحها، وشاهد نجوماً تبزغ كأنها عصافير ميتة.

وجمع الرجل الجلاد قوته، وضغط على المدية، فاخترقت اللحم والعظم اللدن، وفصلت الرأس الذي تدحرج مبتعداً عن قطعة اللحم الباقية، وكانت قلباً وكتفين. وظلت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين، تطل منهما نظرة بلهاء.

ونهض الرجل الأسود ووضع في جيبه علبة السجائر ثم سار متجهاً نحو باب الغرفة، وعندما أمسك مقبض الباب التفت نحو الرجلين، وقال لهما: «نظفا الغرفة قبل ذهابكما».

وعندئذ تذمر الرجلان بأصوات مرتفعة.

الدراسة:

«سليمان الحلبي» يعيش بيننا، ولكن ليس ثمة من يتنبه لوجوده في هذه المدينة أو حتى من يعبأ بما يحدث له؛ ومع ذلك فإن ثمة من يحصي عليه أنفاسه ويتحين الفرصة حتى يخلصها وأهلها منه، وهاهو ذا يرسل وراءه من

يلاحقه ويوقفه ثم يقوده إلى مخفر غير بعيد. ومع أن الرجلين اللذين يدنوان منه ويطلبان هويته ويقتادانه يذكران بجواء محاكمة فرانز كافكا، وكذا الشأن بالنسبة لرد الرجل الأسود الذي كان في انتظاره في ذاك المخفر والذي يؤكد فيه أن مجرد ولادة سليمان الحلبي تنفي براءته، وأنه مدان، وأنه مراقب، وأنه أخيراً قد وقع، فإن كل ما في القصة يحيل على المجتمع العربي الذي يسعى ليشق طريقه في القرن العشرين نحو التحديث والتقدم التقني ويتخلى في أثناء ذلك عن الكثير من قيمه الإنسانية التي لا يفسح لها كبير مجال فيه، بل، وأكثر من هذا، يسعى إلى التخلص منها في أقرب فرصة. وقد حانت الفرصة فيما يبدو للتخلص من «سليمان الحلبي» وبما يمثله من قيمه وطنية وقومية واجتماعية، وليس ثمة من خطأ أو سوء تفاهم كما يود سليمان أن يتوهم:

«فأطاعهما دون تفكير، وسار وهو يقول لنفسه: لابد من أن ثمة سوء تفاهم».

ذلك أن المجتمع الجديد لا يمكنه أن يقبل سليمان الحلبي بأي وجه من الوجوه، ولأنه مدان منذ ولادته فليس على هذا المجتمع إلا أن يراقبه:

«أنت مجرم، وكنا نراقبك منذ أمد طويل فالناس المشبوهون نعرفهم بسرعة ولا يستطيعون خداعنا».

وبالطبع فإن كل ما يصدر عنه سيكون مدعاة للريبة، وجميع التقارير التي وصلت إلى الرجل الأسود تؤكد أنه مجرم:

- فهو يتطلع إلى القمر في ساعة ودقيقة محددتين من يوم محدد أيضاً، ويحدِّث نفسه في سعادة القمر لأنه لا يعيش في مدينة حاكمها الجنرال كليبر.

- وهو يطلق سراح عصافيره في يوم محدد وساعة محددة، ويكتم رغبة في البكاء عليها إذ يراها ترتبك وتضطرب عندما تنطلق خارج القفص، لأنها لم تعتد غير هذا القفص مكاناً يؤويها:

- وهو يسمح في يوم محدد وساعة محددة لخاطر في غاية الخطورة أن يراوده، وهو أن العالم سيكون سعيداً لو هلك بعض الأشخاص.

- وهاهو ذا أخيراً يرى فيما يراه النائم، وفي ليلة محددة، أنه قتل الجنرال كليبر.

ومع أنه كان شديد الاقتناع ببراءته، فإنه استشعر بنمو شعور حقيقي بالذنب في أعماقه؛ وعلى الرغم من الهلع الذي انتابه لدنو لحظة تنفيذ حكم الإعدام بحقه، ورفضه تصديق ما حدث حوله، وعدّه إياه مجرد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزة من يد أمه، فإنه لم يحاول المقاومة قبل بدء عملية بتر الأعضاء، ولا في أثنائها، لأنه ربما وصل إلى قناعة ما باستحالة متابعة الحياة في الشروط الاجتماعية الجديدة للمجتمع العربي الحديث.

ولما كان هذا المجتمع العربي الحديث حديثاً بالنوايا أكثر مما هو حديث في الحقيقة، يعنى بالقشور دون الألباب، وبالمظاهر دون البواطن، وبالأعراض دون الجواهر، فإنه لابد أن يعدّ كل الإجراءات والشكليات التي تتطلبها عملية التخلص من هذا المجرم المدان منذ ولادته، ولأنه يُعدّها دون كبير تفكير فيما تنطوي عليه من دلالات فإنه يقع في جملة من التناقضات في أثناء إعداده لها مما يجعلها أبعد ما تكون عن الانسجام والاتساق الداخليين. وهكذا فإنه بمجرد أن يحلم بقتل الجنرال كليبر (والحلم تعبير عن رغبة مكبوتة في اللاشعور)، فإن الدعوى تُحركّ ضده ويُحضرَ إلى المخفر، يقوده إليه رجلان متجهما الوجه، صارمان، قسمات وجهيهما متشابهة، طويلا القامة، تحدث معرفة مهنتهما لدى سليمان الحلبي الارتباك في البداية والانقياد والاستسلام دون تفكير في نهاية المطاف. وفي المخفر غير البعيد (فهو دائماً قريب) يلقى الرجل الأسود، ذا الشارب الأسود، والجلد الكثير التجاعيد والذي يشبه جلد سرطان ميت ظل زمناً مديداً تحت شمس قاسية، والعينين الصارمتين، الذي يقرأ برتابة وكسل، ويبتسم أحياناً، ويلعق (مثل

حيوان مفترس) بلسانه شفته السفلى، ويتشفى، وينتشي بالأغنيات وما يرافقها من طقوس التعذيب والقتل. وهناك تجري المحاكمة، وتبدأ بتوجيه التهمة:

«في ليلة السادس من حزيران شاهد سليمان الحلبي حلماً قتل فيه الجنرال كليبر».

يوجهها الرجل الأسود إلى سليمان الحلبي الذي ينكرها بدوره.

«لا، لا، أنا لا أعرف الجنرال كليبر».

ولكن إنكاره لا يجدي، فثَمة من يؤكد التهمة، وشهود الإثبات أكثر من واحد، وليس على الرجل الأسود أكثر من الالتفات وإعطاء الأوامر بإحضارهم. وهكذا يلتفت نحو الرجلين اللذين أحضرا المتهم ويأمرهما.

«أحضرا الشهود».

ويبدو أن هؤلاء كانوا في الانتظار، ومستعدون للتلبية فوراً. فمع أن الرجلين المأمورين بإحضارهم لم يتحركا فإن باب الغرفة سرعان ما يفتح ويدلف إلى الداخل ثلاثة أشخاص معفري الثياب بالتراب، وجوههم صفر كأن أصحابها عاشوا قروناً في قبور تمقت الشمس. وسواء أكان هؤلاء من الأحياء الذين يعيشون كالأموات، أم أمواتاً بعثوا من قبورهم ليؤدوا ما يُفرض عليهم من واجبات تجاه العدالة (وبعث الشخصيات من قبورها أمر مألوف في قصص زكريا تامر)، فإنهم دائماً قادرون على تلبية ما يطلب منهم بكل الحذافير المطلوبة، والتفصيلات المرغوبة، ولا تتدخل في تلبيتهم هذه حتى صِلاتهم الشخصية الحميمة (فهم الأب والأم والأخت بالنسبة لسليمان المتهم بارتكاب جريمة التعبير عن الرغبة المكبوتة في عالم الحلم). ولأنهم حريصون على إرضاء جهة الادعاء فإنهم يتجاوزون حدود التهمة وعالمها، الذي هو عالم الحلم، إلى عالم الواقع، ويدلون بشهاداتهم التي تدين المتهم. وهكذا فإنه، وتبعاً للنظام القضائي، يكفي أن يعترف الشهود بالجريمة التي نفذت في عالم الحلم، كما يزعم الادعاء، (ويؤكدوا رؤيتهم

لتنفيذها على يد سليمان الحلبي رؤية العيان في عالم الواقع) حتى يدان الرجل. ولذا فإنه حين يسأل الرجل الأسود سليمان الحلبي:

«هل سمعت ما قيل؟ الأدلة على جريمتك ثابتة».

وينكر هذا الأخير التهمة والجريمة بإصراره على أنه لم يعترف بشيء، فإن الأول يجيبه بكل بساطة:

«اعترافك ليس مهماً، لقد اعترف غيرك بذنبك».

إن سليمان الحلبي في عالم المجتمع العربي الحديث لا يملك من أمر نفسه شيئاً، إذ أمره كله مناط بالآخرين. ﴿ولله الأمر من قبل ومن بعد﴾ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومع أن سليمان الحلبي لا يقولها، ولكن لسان حاله يقولها ضمناً، وهل ثمة أمضّ ألماً من سماع شهادات الأب والأم والأخت تثبت التهمة على الابن والأخ وتقوده إلى عقوبة الإعدام؟ إن القدر يُحكم قبضته على عنق سليمان الحلبي، وكل شيءٍ مدبّر معدّ على النحو المطلوب من الرجل الأسود أو ممن يقف وراءه. وهاهم الأهل الذين لا تقبل شهاداتهم عادة إلا في حالات استثنائية كحالة سليمان الحلبي ينقلبون أداة طيعة في يد الرجل الأسود، ويشهدون على جزء منهم بأنه قد ارتكب فعلاً ما يزعم الادعاء أنه رآه حلماً، أي أنهم في الحقيقة يتجاوزون حدود التهمة، لكنهم يفهمون، في الوقت نفسه، المغزى من توجيهها، والغاية المرجوة من تلفيقها، فيمضون بها إلى حد التنفيذ. ولأنهم منقادون برغبتهم في إرضاء الرجل، أو ثمة من يقودهم ليرغبوا في ذلك أو ليظهروه، وإلى أبعد الحدود، فإنهم لا يلتفتون إلى اتساق consistency شهاداتهم أو انسجامها فيما بينها. بل إن كلاً منهم يحاول تجاوز سابقه في إظهار ولائه وتنفيذ ما يراد منه على النحو الأمثل، وكأنهم في مزاد علني، ولكن لصالح الآخرين، المتمثلين بالرجل الأسود.

ولكن يبدو أن البقرة قد وقعت والسكاكين قد كثرت، والكل يسعى إلى النيل منها، حتى بروتوس نفسه، بل الأب والأم - الأصلان - والأخت

- النظير. إنه كابوس وليس حلماً سيصحو منه سليمان - فيما يرجوه - على هزة من يد أمه، إنه واقع المجتمع العربي الحديث الذي ليس ثمة من فسحة فيه للقيم التي يمثلها سليمان.

وهكذا تمضي المحاكمة تبعاً لما رُسِم لها مسبقاً، ولا يلتفت القاضي مطلقاً إلى انعدام الاتساق في شهادات الشهود التي لا تتفق إلا على تجاوز حد التهمة، وتحويل الحلم إلى واقع مشهود. أما الاتفاق على أداة الجريمة فلا يهم، ولا يضير القاضي تنوعها (بين مسدس ضخم يطلق سبع رصاصات تحدث سبعة ثقوب في جسد كليبر المغدور، وفأس يشطر رأسه ويُخرج النخاع من الجمجمة، وسيارة تدهس جسده بتشفٍّ يحوله إلى لحم لا شكل له)، ولا مخالفتها لأداة القتل (أو الجريمة كما تبدو للمجتمع العربي الحديث) التي استعملها سليمان الحلبي وهي المدية؛ وأما انسجام تفصيلات هذه الشهادات مع تفصيلات الواقعة كما تناقلتها الأجيال منذ ما يقرب من قرنين، وكما هي مدوّنة في كتب التاريخ، فأمر تافه. والمهم أن تتم الإجراءات المرسومة مسبقاً بأسرع ما يمكن. وهكذا يأمر الرجل الأسود بانصراف الشهود فيمتثلون لأمره وكأنه ساحر، إذ سرعان ما يتحولون بإشارة ضجرة منه إلى كتلة واحدة تتجه نحو الباب وتغادر الغرفة. بعدها يمضي إلى تعزيز الشهادات الدامغة بالتقارير التي أعدّها الادعاء العام ليؤكد أن سليمان الحلبي أبعد ما يكون من البراءة. إنه مجرم، وأقل ما يستحقه هو عقوبة الإعدام في نظر الرجل الأسود - محرك كل شيء في القصة. وهذا الأخير جاهز للنطق بالحكم على سليمان حكماً وجاهياً قاطعاً مبرماً غير قابل للطعن أو الاستئناف أو النقض.

«ستعدم في الساعة السادسة».

هكذا ينطق القاضي بالحكم بعد أن ينهي المحاكمة، وقد أزف الرحيل:

«فألقى سليمان نظرة سريعة على ساعته، فألفاها توشك أن تصبح السادسة، فانتابه الهلع، ورفض تصديق ما حدث حوله، واعتبره مجرد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزة من يد أمه وسيسمع صوتها.

وقال الرجل الأسود بتشف : «ستعدم» .

«- ألن أحاكم؟» .

فضحك الرجل الأسود، وقال : «انتهت المحاكمة . أنا القاضي» .

نعم لقد نطق القاضي بالحكم، وأكده، وليس على المتهم المجرّم والمحكوم عليه إلا أن يسأل عن طريقة تنفيذ الحكم . وسيأتيه الجواب فعلاً لا قولاً، ولكن بعد استبعاد كلا ما يخطر له على بال . ذلك أن الإعدام لن يكون شنقاً، ولا رمياً بالرصاص، ولا حرقاً، ولا الدفن حياً في التراب، ولكنه سيكون شيئاً آخر يتجاوز كل حدود الخيال، وسيتحول هذا الخيال إلى واقع بمجرد إشارة من الرجل الأسود إلى الرجلين :

«هيا نفذا الحكم بالإعدام» .

وهكذا يمضيان إليه يعريانه من ثيابه، ويستسلم سليمان دون خجل على الرغم من وقوفه عارياً عرياً كاملاً أمام أعين الرجال الثلاثة . وهل ثمة ما يخجل منه وهو يُمثّل ما يمثّل في اللاشعور الجمعي لكل من حوله (باستثناء الرجال الثلاثة ومن اختاروه من شهود ليؤدوا معهم مشهد المحاكمة - الجريمة التي ترتكب بحقه والتي يُفترض، وياللمفارقة، أن تنتهي، لمجرد حملها اسم المحاكمة، بحكم عادل) . بعدها يتوجه الرجلان إلى خزانة خشبية يخرجان منها مدية كبيرة[1]، ويلقيان سليمان على الأرض دون أية مقاومة من جانبه، وتبدأ عملية تنفيذ الحكم مصحوبة بالموسيقى (وكأنها طقس من طقوس المجتمع العربي الحديث التي يبعث بعضها على الغثيان) التي تحوّل الرجلين إلى جلاّدين ينفذان عملية تمثيل بشع مروع بجسد سليمان الذي افتدى به وبروحه قومه فيما سلف من أيام . وتأتي عملية التمثيل بالتدريج على :

(١) - وهي السلاح نفسه (من حيث النوع) الذي استعمله سليمان الحلبي ليدفع عن قومه ظلم المحتل بالتخلص من كبير قادة حملته كليبر، ويستعمل هنا للإجهاز عليه إذ لم يعد له مكان أو فسحة حياة فيما تقدم من زمن على عمليته التي افتدى فيها قومه بنفسه .

آ) أصابع اليد اليمنى (التي أمسكت بالمدية الأولى التي أزهقت روح رأس الظلم، والتي صافحت الأصدقاء ولمست باشتهاء لحم النساء وكان باستطاعتها في لحظة غضب خنق مخلوق ما، والتي لم تفعل لأن ذلك ينصرف اليوم إلى جزء من «الأنا»، وهو ما لا تسمح به قيم الحلبي).

ب) ساعد سليمان (الذي كان يحلم بأن تنام الفتاة التي سيحبها عليه) فيضمحل المرفق الذي كان يتكئ على حواجز الأنهار ومناضد المقاهي ويلكز الأصدقاء.

جـ) الذراع اليمنى.

د) الذراع اليسرى، ويغدو الحلبي بعدها دون ذراعين عاجزاً عن معانقة امرأة أو حتى عن إطعام نفسه، ولو كان سليمان متسولاً يمشي في الشوارع بلا ذراعين لاستدر الشفقة ولانهمرت النقود عليه من جانب الجموع التي تغادر الآن دور السينما حيث كانت تشاهد تخييلاً آخر لا يقل إثارة عما يحدث في هذا المخفر. وعلى أي حال هذا أقصى ما كان يطمح إليه الحلبي من هذه الجموع التي لا تبالي فيما يبدو بما يجري من حولها وتتابع حياتها كما اعتادت.

«وفتحت دور السينما أبوابها، وغادرها روادها بخطا متثاقلة.

. . . وكان الناس في الشوارع يسيرون على الأرصفة، وبعضهم يقف قليلاً أمام واجهات المكتبات متطلعاً إلى عناوين الكتب والجرائد. وكانت أصوات بائعي أوراق اليانصيب تتصاعد مطاردة المارة بإلحاح: «ستربح مائة ألف ليرة». وكانت الباصات تواظب على المسير متوقفة بين الحين والحين في أمكنة معينة.»

هـ) باقي الأعضاء التي تُقطَّعُ وتُلقى جانباً.

وهكذا ينقرض جسد سليمان الحلبي متضائلاً رويداً رويداً (إنه جنس مهدّد بالانقراض لم تعد تسمح به طبيعة الحياة الجديدة - جنس لم يجد في مجتمعه من يتنبه لضرورة الحفاظ عليه كما يحدث عادة لأنواع الحيوان والنبات الأخرى- فمنطق البقاء مختلف في هذا المجتمع).

ويبدو أن عملية التمثيل هذه قد امتدت أطول مما ينبغي، ولهذا صدرت أوامر الرجل بإنهائها:

«لننته بسرعة، لدي موعد».

فقد كان يتوقع ضيوفاً في ذلك اليوم، فضلاً عن تطلعه للقاء زوجته الجميلة التي يشعر بعد رؤيته لعملية التمثيل بجسد الحلبي بأنه يحبها بضراوة.

ومع أن الرجلين لم يكونا على موعد إلا مع المقهى أو مع الشعر والنوم فإنهما امتثلا لأوامر الرجل الأسود وقام أحدهما بفصل الرأس عن قطعة اللحم الباقية من جسده والتي لم تكن غيرَ قلب وكتفين، وظلت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين تطل منهما نظرة بلهاء تشير إلى عالمه الذي أخفق في فهم ما يحيط ومن يحيط به، فقد كان غبياً أودى به غباؤه، ذلك أنه لم يفهم ما طرأ على مجتمعه من تبدل وتغير في سلم القيم التي كان يعتقد أنه يفترض بها أن تكون ثابتة تقوم بها وعلى أساس منها إنسانية المجتمع.

مهما كان الأمر فقد انتهت محاكمة المجرم وتم التخلص منه بالفعل، وما دام الأمر قد تم، فللرجل الأسود أن يمضي إلى خلافه[٢]، وهكذا يهم بالانصراف ولكنه يتذكر ضرورة تنظيف الغرفة تماماً من آثار المحاكمة / الجريمة فيأمر الرجلين بتنظيف الغرفة قبل ذهابهما، فتتحرك في نفسيهما مشاعر التمرد، فيتذمران بأصوات مرتفعة من المهمّة الأخيرة التي يبدو أنها تمسّ كرامتهما الإنسانية، أما ما خلا من مهمات فجدّ طبيعي. خلقا من أجله، أو هكذا باتا في المجتمع العربي الحديث مخلوقين له ويؤديانه على أحسن وجه وبمصاحبة الموسيقى تأديتهما لأي طقس آخر في هذا المجتمع.

والحقيقة أنه ليس على المرء أن يمضي بعيداً في قراءته لسطور قصة «الجريمة». وما بين سطورها حتى يتبين أنها ليست إعادة سرد لمأثرة سليمان الحلبي في تخليص القطر المصري من رأس قوة الاحتلال الفرنسي الغاشم

(٢)- أنهى الأمر فليمض إلى الخمر وما يرافقه من لهو.

وافتدائه لهذا القطر بنفسه لتبدو وكأنها جريمة يحاكم عليها ويحكم عليه بالإعدام من جانب سلطة قادرة على تلفيق أي شيء تريده بدءاً من التهمة انتهاءً بالشعور بالذنب (على الرغم من القناعة العميقة بالبراءة) مروراً بشهادات الشهود والتقارير الدقيقة. إنها في واقع الحال إعادة وضع لهذه المأثرة (التي انتهت بإعدام سليمان الحلبي بالتمثيل الجسدي المسرف في بشاعته وفي إثارته للغثيان) في سياق جديد تمتحن فيه، وتمتهن على نحو بشع، وإعدام لها يتمثل في إعدام صاحبها على هذا النحو المغرق في وحشيته واستهتاره بالحياة الإنسانية.

وكما أن محاكمة كافكا ليست في حقيقتها محاكمة لجوزيف ك وإدانة له بمقدار ما هي محاكمة لمجتمعه وإدانة له، فإن جريمة زكريا تامر ليست عرضاً لجريمة سليمان الحلبي وإصدار حكم فيها من جانب مجتمعه بمقدار ما هي وصف محكم ودقيق وموحٍ للجريمة التي يرتكبها المجتمع بحق سليمان الحلبي وما يمثله من قيم ومثل سامية. إنها ليست وصفاً لمحاكمة تهدف إلى تحقيق العدل ونشره بملاحقة مجرم هارب من وجه العدالة يحقق معه ويحاكم ويدان ويعدم عقاباً له على قتله ضَحيّة بريئة، والنفس بالنفس، ولكنها في حقيقتها تصوير مروّع لجريمة ترتكب باسم العدالة وبأقصى درجات البرودة واللامبالاة. وهي فيما يبدو ليست جريمة عابرة لأنها زماناً ومكاناً وممكنة الحدوث تبعاً لقانون الاحتمال والضرورة. فمكانها يمكن أن يكون أية مدينة عربية والإشارة إلى الليرات لا تعني بالضرورة أقطاراً عربية معينة دون أخرى. وزمانها من السنة فصل الخريف فصل سقوط كل أصفر وبال وعتيق، فصل تخلص الطبيعة من كل ما استنفد أغراض وجوده[٣]؛ أما زمانها من حيث التاريخ فيشير إليه زكريا تامر من خلال حديثه عن السيارة، والمسدس الضخم، والقطار، والمذياع، والمقهى، والسينما، والباصات، والأفلام السخيفة، وبائعي اليانصيب. وربما كان من أبرز ما يسترعي انتباه قارئ القصة أن اللاتحديد فيها لا يقتصر على الزمان والمكان فقط، بل يطول من يعمرها بـ«الحياة» (وأية حياة هذه) فهم الرجل الأسود الذي تقدم وصفه، والرجلان اللذان يساعدانه في تسيير جهاز العدالة،

والشهود الثلاثة (الرجل الهرم، والمرأة الكهلة، والفتاة)، ورواد السينما، والمرأة والأصدقاء وبائع اليانصيب، فضلاً عن المغنية ذات الصوت المفعم عذوبة وشجناً، الصوت الذي «يتلاقى فيه الريح والمطر والحنان»، وأصوات العصافير، وأبواق السيارات، والفارس الذي يمتطي صهوة جواد غير مروض يطأ بسنابكه لحم سليمان في حين يغرس صاحبه سيفه في قلبه: ولكنْ ثمة استثناءان اثنان هما سليمان الحلبي وكليبر، المجرم والضحية؛ عنصران اثنان منذ قابيل وهابيل مستمران حتى الأبد، ولكنهما في المجتمع العربي الحديث يتبادلان الأدوار، فسليمان بما يمثله هو المجرم، وكليبر بما يمثله كذلك هو الضحية - هكذا يقرأ المجتمع العربي الحديث هذه الأمثولة، هكذا يقرأ التاريخ ويقرره. وبالطبع ليس كل هذا المجتمع من يقرأ ويقرر إنه الرجل الأسود فقط، أما سائر المجتمع فهم فئتان فئة هي الأقل عدداً تأتمر بأمره وتوظف نفسها أداة ينفذ بها ما يشاء (الرجلان والشهود) وفئة أكثر عدداً أو هي ما تبقى من عدد (وكم يهم العدد في المجتمع العربي الحديث) هي تلك الجموع التي تمضي في حياتها (اللاحياة) غير عابئة بما يجري من حولها، وهي لا تلقي بالاً لما يمضي أو لمن يمضي، تعيش يومها، وكل ما يمكن للمرء أن يتوقعه في استجابة (تقنع بوجود الحياة فيها) هو أن تبذل شفقتها ومالها عندما ترى جزءاً منها (يفترض فيه أن يكون من الماضي الحي في ضميرها) وقد غدا بلا ذراعين، وتمضي بعد ذلك إلى ما هي فيه من حياة هي الموت بعينه.

وقد يبدو ما نقرؤه في قصة «الجريمة» لزكريا تامر كابوساً نفرق منه، ولكنه بتجاوزه عالم الحلم إلى عالم الواقع، رؤيا مروّعة، تنذر وتتوعد، إنها دعوة مؤلمة جارحة لتفحّص ما نعيش به من قيم، وللتفكير في مدى كونها استمراراً للقيم التي كانت بها الأمة أمة تصنع التاريخ، بمقدار غدوها قيم أمة تنتمي إلى التاريخ، ولا تملك منه غير ذاكرة مفقودة.

---

(٣)- يبدو أن المجتمع العربي الحديث بات مقتنعاً بأن سليمان الحلبي قد استنفد أغراض وجوده فسعى إلى التخلص منه.